السيرة الذاتية في الفكر الإسلامي
حياتي لعبد الرحمن بدوي

رايس زواوي(*)

«بالصدفة أتيت إلى هذا العالم، وبالصدفة سأغادر هذا العالم!»(١).

بهذه العبارة يستهل/ عبد الرحمن بدوي/ سيرته الذاتية وكلها ملئ بالمتناقضات منها: القلق والطمأنينة، الكراهية والحب، الموت والحياة.. نتيجة فلسفة التوتر الناتجة عن التهميش فيتحدث عنها في تعاقب وانتقال ديالكتيكي من الذات إلى الآخر، وهو احتكاك ومصادمة وصراع نتيجة الإدراك بشعور اللحظة التي ربما أخفقته أحقيته، لكنها ساعدته من خلال تحفيز الصدفة إياه لمعنى الكتابة وتجاوز الهامشية التي تمثلت عنده في لحظة ما باللامنطوق، فهو لا يريد أنْ يُعير اهتماماً للامنطوق كونه لا يؤمن بالصدفة إلاّ لكونها حافز على اختراق معنى الهامشية وهذا من خلال معايشة التوتر.

لقد كان/ بدوي/ شغوفاً لتشخيص المعاناة من الاستلاب الداخلي في تدفق زمني مستمرّ يتم في المكان الممكن، حيث الآنية البدوية هي الشعور بالاختيار في تلك اللحظة، فجعل من فهم المتكآت التي يستند عليها الفكر للمشكلات والقضايا أمراً يؤذي إلى التنفيذ بالتزامن مع الاختيار وهذا كان مهماً له في تحليل واقع المجتمع العربي.

لقد أخذ / بدوي/ من مفهوم الصدفة: «وحدها ربما تكون قدر كل واحد منّا ما دام أنّ لعبة الوجود محكومةً أساساً بمنطق اللحظة، لا خيار لنا إلاّ إعطاء الزمان الحاضر أقصة

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس- الجزائر.
البريد الإلكتروني: rais1111@yahoo.fr.

(١) بدوي، عبد الرحمن، سيرة حياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ج١، ط١، ٢٠٠٠، ص ٥.

ممكناته، لأنّ الموت قد يأخذ أي صفة..»[١] اتجاهاً إيجابياً نحو تشريح كل الإشكاليات العالقة منها الأدب، التصوف، الفلسفة...لعله يقف على عتبات صعوبة الاستشراف المجتمع المصري خصوصاً والعربي عموماً، «.. وأخذتُ في قراءتهما فعسر عليّ فهم الثاني، وسهلّ تحصيل ما في الأول..»[٢] وبشيء من الإعجاب إلى العلم يتعقب الفيلسوف ضمن تقارب لحظات المسافة التي اختارها هو لنفسه لقناعته بأنها حصيلة ولع المرء بالعلم والتعلُّم بتوجيه من اللغات والفلسفة، فالمسافة التي تحدث عنها/ بدوي/ هي التي تتيح لنا التفكير في كل لحظة من لحظات هذه المسافة المتقاربة بالنسبة لـ/ بدوي/، فيشعرنا بأنّ محطات تشكيل هذه المسافة هي من اختراع أنفسنا، لأننا محبين لطبيعة تفكير المسافة.

يدعو / بدوي/ من خلال سيرة حياته إلى المزاوجة بين الترجمة وتعليمية اللغات[٣] لتحصيل معنى الكتابة، حيث نفهم معنى المسافة البدوية في تفكير اللحظة المكونة لها. وتشاء وجودية الفيلسوف تفسير الهامشية التي عانى منها بالقول أنّ ثمة ترتيباً يُحاك فيؤذي إلى إيجاد مَنْ يوجد أو إعدام مَنْ يُعدم لقوله: «وواهمٌ إذن مَنْ يظن أنّ ترتيباً، أو عناية أو غاية، إنّما هي أسباب عارضةٌ يدفع بعضها بعضاً فتؤذي إلى إيجاد مَنْ يُوجد أو إعدام مَنْ يُعدمُ»[٤] فتؤخذ الكتابة بما هي تجربة فناء الذات في الآخر خلال أن يكون النص واسطة للتعريف بالسيرة الذتية وبالهوية، خصوصاً حين قررّ /كوييريه/ (Koyré) مغادرة مصر في شهر مارس من عام ١٩٤١، بعد أن كان مشرفاً على رسالة ماجستير للأستاذ / بدوي/ المعنونة بـ مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة فيتحدث المؤطر إلى تلميذه / بدوي/ بأنّ الإصرار هو فلسفة تفرض على المرء التغلب على الباقين لأنّ الكتابة ليست معطى، فهي التي تُحدِّد لنا معنى الاختلاف مع الآخر والتميُّز عنه من خلال فهم المنتوج الجمعي الموّجه إلى الآخر، هذا الآخر الذي كان على الدوام موجود ومذاب في الأنا لا يُمكن التفكير إلاّ من خلاله، فهو المُحفِّز كفلسفة وكتفكير راهن لقوله: «لهذا وجدت فيه عزماً كبيراً في تفهيمي مذهب الظاهريات، وتوجيهي في ميدان

(١) بوخليط، سعيد، عبد الرحمن بدوي: حياة علمية زاخرة، مجلة المستقبل العربي، مركز- لبنان، دراسات الوحدة العربية العدد ٤٠٢، أوت ٢٠١٢ ، ص ١٥٤.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه ج١، ص ٦٤.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص ٠٦.

الفلسفة الوجودية، وقد كان على علمٍ دقيق بها»[١] فيربط بين التحدّي والكتابة من خلال الإصرار.

وكما كان الفيلسوف متفائلاً، كان كذلك يئساً أثناء شعوره بالإحباط فيما يتعلق بإمكان إحداث تغيير جذري في الحياة السياسية في مصر حيث صار اليأس دافعاً قوياً لإيجاد مخرج من هذا الردب التعسفي الناتج عن معاملة السلطات البوليسية لكونه ينتمي إلى حزب مصر الفتاة.

وفي الفترة التي إنظم فيها الفيلسوف إلى حزب مصر الفتاة، بدأت المضايقات البوليسية على شخصه، ليتحدد بالموازاة أنّ فلسفة التهميش بدأت للتو من هذه اللحظة، وهذا ما أشعر / بدوي/ بأنّ الإنقلاب (الإصلاح) هو في حرية تبني تفكير حرّ وشخصي لتحديد مصير الحريات والأفراد والفكر، عندئذٍ، ارتبط التهميش[٢] بضرورة إعادة التفكير في المنتوج الجمعي والعقلاني..

وتحت قناعة فلسفية في الحياة، رسّخ / بدوي/ مشروعاً قومياً ووطنياً، وطدّ فيه حقوق الآخر في فكره الذي امتدّ لسنوات طوال، فحدّد برنامجه الإصلاحي من هذه اللحظة التي كتب فيها يقول: «والآن، وقد تجاوزت كُتبي المائة والعشرين أستطيع أن أقول بكل فخرٍ واعتزاز إنّني حققت هذه الخطة تحقيقاً كاملاً (...) والدوافع هو إحداث ثورة روحية في الفكر العربي»[٣] ومن خلال استيعاب مفهوم الانتشار وإفهامه للآخر بأنّه شرطٌ أساسي لفهم ميكانيزم التهميش. لذا، كانت وصيته في كتابه عن نيتشه هي: «لكي تجني من الوجود أسمى ما فيه عِشْ في خطر!»[٤] وهذا القول غايةٌ في الإصرار بالشعور بالتوتر التحقيق تماس مع الآخر لكونه يتضمن هَمَّ التغيير وحركية التفكير ونشاط ما يجري في المجتمع.

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ٦٥.

(٢) فيتحدث / بدوي/ عن كارثة إنسانية- اجتماعية مسّت العلم والفكر معاً، عندما تجرأ / أحمد أمين/ إذ كان يومئذٍ عميد الكلية: «وحَمَلَ المجلس على أخذ قرار بتأجيل المناقشة عاماً! وما أكثر الخُشُب المسندة في مجالس الكليات حين لا يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية!».

انظر:

المصدر السابق، ج١، ص ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٥٠ - ١٥١.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥٢.

لا شك أنّ مفهوم الأزمة قد حدّد كل توجهاته بدءاً من مسيرته العلمية إلى سيرته الذاتية، فحياته ملئ بالمضايقات على امتداد نشاطه الفكري والسياسي، فهو الذي يُحدِّد لنا وظيفة المثقف في مقابل الراهن في عموميته حيث تُصار الأزمة إلى معنى الإنتاج في فكر / بدوي/ في علاقتها بمفهوم المضايقة والتهميش.

لا يتوانى الفيلسوف عن المُضي قُدُماً نحو دراسة كل المجالات العلمية التي تفرض وجود إنقلاب وثورة و إنتشار أثناء تعامله مع ما يُسميه كنْ يقظاً وفطن. و إزدادت المضايقات إلى غاية ١٩٦٤ لقوله: «إذ لم يكن في وسعي أن أنشر في الصحف أو أُصدر كُتُباً تتناول الرّدّ على المدّ القرمزي (= الشيوعي) في مصر بطريقةٍ مباشرة، فإنّ الرقابة كانت بالمرصاد، والنفوذ الشيوعي في إدارة الدولة خصوصاً من سنة ١٩٦٤ وما يليها كفيلاً بالقضاء على كل صاحب قَلَم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والإشتراكية «العلمية» وما تفرّع عنها من اتجاهات»[١] حيث السلطة التي مورست على المثقف هي نفسها التي أدّت حتماً إلى نهاية هذه الموضة، لهذا يذكرنا / بدوي/ دائما بأنّ الإنقلاب واجبٌ وطني وقومي اتجاه الآخر. لذا، اتخذت مفاهيم الأزمة، الموضة.. الخاصة بالاتجاهات سواء الوجودية أو الماركسية وغيرها، نشاطٌ يجب التصرُّف إزاءه بحذر، حيث الهامشية هي صاحبة التفكير في الآخر، وهو نفس الآخر يجد نفسه في الأنا نفسه.

أثارت سيرة حياتي لبدوي المؤلفة من أكثر من ١٥٠٠ صفحة ضجةً كبيرة لما تضمنته من وجود أزمة في فكره أثناء عطائه الفكري، ففي الوقت الذي هُمِّشَ من مناقشة رسالة الماجستير إلى السنة التالية، استقبلته جامعة السوربون لإلقاء دروس هناك، حيث اختار أن يعيش وحيداً، ومُغترَباً في باريس.

ما نعرفه عن/ بدوي/ من خلال القراءات والكتابات التي ألقاها، واللقاءات التي جرت معه وقتئذٍ، أنّه كان رجلاً مغروراً[٢] وفظاً، وكريهاً في شخصه من قبل حتى زملائه، لكن فِكره المُبدع والمُتنوع على كل العلوم الإنسانية والاجتماعية كان زاخراً ومعطاءً ولا يجب أن نندهش من الغرور / البدوي/ لأنّه كان نتيجة حياته الخاصة والقاسية.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٥.

(٢) اللاوندي، سعيد، عبد الرحمن بدوي، فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، مركز الحضارة العربية- القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص ٨٣.

بالرغم من التهميش الذي لاقاه في مصر، لم يُثنيه هذا عن اندماجه مع الآخر أثناء كتاباته لذاته ولذات الآخر، فهو لم يكتب من ذاكراته، بل لذاكرته المتمثلة في الآخر المثقف.

سؤالٌ ضخم وفلسفي طُرح وهو: لماذا يكتب الكاتب حين يكتب؟ وكذلك: كيف يقرأ؟

يبدو أنّ القلق كان يُسيِّر / بدوي/ كاتجاه متلثه الوجودية عند الفيلسوف، بالرغم من عودته إلى الدفاع عن التراث الإسلامي، إلاّ أنّ الكراهية كانت سيرة هذا الرجل خصوصاً اتجاه / محمد أركون/ فصفة التشاؤم والكراهية كانت فلسفة خاصة لكل مفكر يُفكر بعقلية ومناهج الغرب. فلقد كتب سامح كريم يقول: «بدوي مفكر عالمي تتخطاه الجوائز»[١].

لقد دافع الفيلسوف عن هوية التراث أمام المثقفين والمستشرقين منهم ترجمة القرآن الكريم لـ جاك بيرك، وانتقادات أركون للعقيدة .. وغيرها بمعية توظيفه لمعنى الحادث الاجتماعي في سياقه الموجود والمُدرَك لقوله أنّ هذه الذات: «ليست هي هي عينها حين تُفسِّر نصاً مقدساً، وحين تلاحظ ظاهرة طبيعية (...) والفكر لا يتناول فقط «الآخر»، بل يتناول أيضاً الأنا، ولهذا يتناول التحليل كيفية معرفة الأنا لنفسه»[٢].

بصرف النظر عن المكان والزمان اللذان تولدان فيهما هوية الذات، فإنّ اكتشاف حكاية الهوية وممارستها ليس في عدد الكتب والمؤلفات التي تبرِّر لصاحبها حقه في الحياة وفي سيرته الذاتية، وإنما دوام كتاباته المستمرة هي ما تُعيد اكتشاف هوية الذات.

ثمة اختلاف بين أن تكتب وتمارسها على الدوام، وبين الكتب التي تشهد على إسمك في التأليف، فأن تكتب، هو أنك تحكي عن سيرتك الذاتية عند الآخر انطلاقاً من نشاطك الفكري والمتجلي في فعل الكتابة، وأنّ ما ألفته من مادةٍ علمية لا يُعبِّر إلاّ عن شطر من سيرتك الذاتية.

ببساطةٍ الكتابة / البدوية/ هي تعبيرٌ عن اكتشاف ذاتاً مفككة ينتابها هاجس الانقطاعات من دور النُخب ومن دور مكانية وزمانية التأليف.

---

(١) اللاوندي، سعيد، المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢) بدوي، عبد الرحمن، سيرة حياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ج٢، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٧.

سيرة بدوي في معنى الزمان

إنّ الوقوف على سيرة أي مؤلف أو فيلسوف، يكون من خلال مخاطبة كتاباته كبنية وكهوية هاجسها المجتمع والكتابة، فالفيلسوف هو دائم التفكك، بالرغم من امتلاكه أدوات كتابته انطلاقاً من الأطاريح الاجتماعية والفلسفية لراهن متردي وميؤوس منه، لهذا أتت كتاباته كمنهج لإحداث الارتجاج في المنظومة المعرفية لخطاب الراهن الاجتماعي، ولأشكلة هذا الراهن من خلال التفكُر وإعادة التفكُر في ميكانزمات تأويل واقع المجتمع برمته.

وأنت تقرأ السيرة الذاتية أثناء استنطاقها من خلال الأعمال الكبرى، التي يكتبها تتعرف على أنّ الهوية الخاصة بهذه اللحظة تُسمع ذاتها ولذاتها وتكتب للذات بعيداً عن التاريخ المتصل في صيرورته، حيث التعرف على الهوية يكون أكثر انفتاحاً بامتلاكها لأدوات تُحسن التعامل بقصديةٍ مع فعل الكتابة والوقائع.

فمسألة كتابة حياتي لعبد الرحمن بدوي هي كتابةٌ لا تملكها الأشياء لكنها تتوق إلى التعلق بالأشياء وبالآخر، لهذا فهي تكتب للآخر في علاقةٍ خطابيةٍ تحاول لأن تكتشف ذاتها انطلاقاً من الكتابة عن هذا الشيء، فالسيرة الذاتية للفيلسوف تعبيرٌ عن بنية فكرية في الآخر، فهي التي تصنع حَدثُها بنفسها، لكن كذلك الآخر خصوصاً الكتابة تضع للسيرة الذاتية حضوراً في الكتابة كما هو الشأن في الزمان الوجودي كما تصوره الفيلسوف بدوي.

لا فرق بين أن تصنع أو أن يضع الآخر لك سيرتك ويحكم عليها انطلاقاً من ما كتبته على الدوام، لا من المؤلفات التي حرّرتها، فثنائية (تصنع- تضع) تجعل من حكاية الهوية أمام مسؤولية الواقع والآخر، لأنّ ما يكتبه الفيلسوف هو أكثر من حالات انفعالية ومواقف يتم التعبيرُ عنها في نصٍ أوتوبيوغرافي يدخل الكاتب معه في جدل منتج يساعده النص على تشهير هويته والتعريف بسيرته أثناء ترجمته للآخر القاريء، فالسيرة الذاتية هي دائماً إعادة اكتشاف هويةٌ منسيةٌ في كتابةٍ تُعرفُ بالاختلاف والخلاف، فلأنها مختلفة، لأنها تُدخِل كل من المتلقي وكاتب النص في علاقةٍ إنتاجية يكثر فيها الإنتاج ويُعرِّف بهاجس كاتبه، أما الثانية (الخلاف) فهي لأنّ المُتلقي يُبدي رأيه إزاء الأعمال المكتوبة من الطرفين، فيزيد في تزكية هوية صاحبها، والكل (الاختلاف والخلاف) سيان، حيث السيرة الذاتية عند بول دومان(Paul de Man) هي:

«نقلٌ مُعبِّر وانتقال من ميدان التجربة إلى ميدان الكتابة»[١] أو هي حكاية الهوية الخاصة، تصنعها بنية مؤسسة تُشكِّل امتداد وفقاً للحدث المُعاش، وهذا الحدث هي صنعة الكتابة في لحظة معرفية يعيشها المتلقي من خلال النص.

وفعلياً، يُحسِن الفيلسوف/ بدوي/ كتابة سيرته الذاتية انطلاقاً من تحليل نوع من التأويل، قد يبدو للكاتب أنّه يستحق نقله للقارىء على شكل عمل إنتاجي يمثل توظيف معايشة الراهن في إشراك الآخر، بعيداً عن التفرُد، وإلاّ كان العمل منتوجاً لاجمعياً، فيمنح الفيلسوف هوية مغايرة أثناء مخاطبة المتلقي لفهم اللحظة التي عيّنها كاتب النص بوسيط هو بنية الخطاب، في تعيين معنى التطابق بين المنتوج العقلاني والذاتية، وبتحقيق هذا الوِفاق نُعطي لفهم الحدث معنى الكونية والعالمية.

تأتي الكتابة كتوجيه نمطي وكتعبير عن النضج النصي في بلوغ الذات مرتبة تستطيع أن تحَدث الواقع من خلال المتلقي، حيث الوصف التشريحي للواقع هو عندما يدخل الفيلسوف أثناء الكتابة في علاقة قصدية ومحايثة مع ما يكتبه، فيبلغ بالنص قمة النضج، خصوصاً أثناء اعتكاف الذات على الكتابة وتكريسها لمعنى انفتاح النص على القارئ المتذوق للنضج.

فيتابع حياته الفكرية أثناء ممارسة الزمان في التاريخ من خلال إستراتيجية محاربة النسيان والتهميش الفكري بالوقوف على الوقائع التي تُشكِّل برأيه إعادة الاعتبار للآخر من خلال تفعيل دور الكتابة حتى نحقق تواصلاً مع هذا المرئي من الأحداث، ما يتطلب منا بحق، انفتاحاً على هذا الوعي.

---

(١) ج. هيو سلفرمان، نصيات، بين الهرمينوطيقا والتفكيكية، تر: حسن ناظم و عي حاكم صاح، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٥٢.